

## القواعد الشرعية في إدارة الصراع الحضاري

كتب د. سامي الدلال مؤلفاً يعالج صراع الحضارات، وهو الأخطر حين تحتك أكثر من حضارة، ويتجاوز الاحتكاك السقف، تتدلع المعارك ويشتد الصراع، ويبلغ التوتر مداه.

د. الدلال يحاول (بسط الموضوع)<sup>(١)</sup> فيتحدث عن وجود أكثر من حضارة، كل واحدة تسعى جاهدة (لحفظ هويتها وخصوصيتها)، ومن ذلك الحضارة الإسلامية والغربية والصينية والهندية واليابانية.

وكان من ثمار استغلال (الفائض الحضاري) لدى بعضها أن عمدت للنيل من الحضارات الأخرى، لكن النتيجة الأشد خطورة كانت في (هزيمة الرمز الحضاري الإسلامي)، الذي كانت (العثمانية) تمثله، فبعد المشاركة في الحرب العالمية الأولى وخسارتها جرى تفكيكها، وإلغاء نظام الخلافة في ١٩٢٤/٢/٢م، وما تبع ذلك من حرب على الثقافة الإسلامية والخط العربي، وعزل تركيا النهائي عن محيطها، ثم ما حصل من الغرب لاستعمار البلاد العربية والإسلامية، وإقامة كيانات هزيلة، ثم جاءت الكارثة الكبرى بإقامة إسرائيل وتسليطها على دول المنطقة في ١٩٤٨/٥/١٥م.

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري بين الأمم الإسلامية وسواها من الأمم، د. سامي محمد صالح الدلال ص (١٧) طبعة أولى ٢٠٠٨م.

وقد اندفع الغرب بأقصى طاقته لقيام إسرائيل والتمكين لها، بحيث صارت (كلب حراسة) كما يقول العرب، أو (عاهرة مواني) كما يقول أحد الإسرائيليين.

والذي يهم بالدرجة الأولى الصراع الشديد بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وثمره هذا الصراع، ومعالم الحضارة الإسلامية.

### معالم الحضارة الإسلامية

خصص الكاتب أكثر من (١٦) صفحة لبيان معالم حضارتنا، قد تشاركها بعض الحضارات فيها وقد تنفرد، وألخصها فيما يلي<sup>(١)</sup>:

- ١- حضارة تعتمد الوحي السماوي ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٢٨).
- ٢- منبثقة عن عقيدة توحيدية توجه مساراتها وتضبط وسائلها ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام: ١٥٢).
- ٣- شاملة لمتطلبات الحياة بفروعها العقلية والفكرية والثقافية والبدنية والنفسية والاجتماعية.

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع الحضاري بين الأمم الإسلامية، المرجع السابق ص ١٩-٣٤.

- ٤- حضارة تسودها حرية منضبطة بالكتاب والسنة: ﴿لَا  
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦).
- ٥- حضارة تهتم في الدنيا والآخرة معاً، وتجعل الدنيا مزرعة  
للآخرة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾  
(النحل: ٨٩).
- ٦- حضارة نقية اللغة ثرية المعاني وافرة المباني ﴿مَا قَرَطْنَا فِي  
الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٢٨).
- ٧- حضارة إنسانية تؤمن بكرامة الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي  
آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠).
- ٨- حضارة تؤمن بالعدل وترفض الظلم والقمع وتحارب  
البغي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي  
الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ  
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).
- ٩- حضارة تقوم على قواعد الأخلاق والقيم الرفيعة ﴿أَلَا  
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِأُولِ الدِّينِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ  
مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ (الأنعام: ١٥١).
- ١٠- حضارة تؤمن بالعلم وترفع قدر أهله ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ  
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

١١- حضارة تعمل للتكافل وتوطيد الإخاء والتراحم، قال ﷺ:

«الخلق عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعياله».

١٢- حضارة تدعو للسلم وتحترم القوة العادلة ﴿ وَقَاتِلُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾.

١٣- حضارة تؤمن بجلب المصالح وإقرارها ودفع المفاسد وإبعادها.

١٤- حضارة عرفت التدرج، وقامت باحترام قطاعات الناس

والعمل على تغيير السيئ منها بالتدرج والإقناع والجدال

بالتي هي أحسن.

١٥- حضارة تؤمن بالتيسير ودفع الحرج وبث الأمل ﴿ وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج: ٨٧).

١٦- حضارة تؤمن بوحدة الصف ودفع الاختلاف والتشتت

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

١٧- حضارة نضال حربي وسلمي، فكري وثقافي، فحين قامت

في شبابها دخلت في صراع مع أقدم حضارتين الفارسية

الساسانية والبيزنطية الرومانية، فأنتهت الأولى وأبعدت

الثانية، وقادت العالم مدة جاوزت ألف عام، وكان أتباعها

يشكلون أفضل مواطنين في دولة وحضارة، وعلمت العالم

الشيء الكثير.

## سنة التداول

من سنن الله الكونية (التداول) يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ  
الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

فكل شعب وكل أمة يأخذ بموجبات التقدم يتقدم، وعلى  
العكس فكل من جمد وتشنج وأخذ بأسباب التخلف فإنه يتخلف،  
يستوي في ذلك (مؤمن وكافر)؛ لذا نرى تاريخ العالم يسجل  
مثلاً: من اكتسب القوة فلن يحتفظ بها أبداً، ومن جمع الثروة  
والمال والقيادة والريادة، فهو يعجز عن الاحتفاظ بها أبداً، ومن  
عاش ضعيفاً متخلفاً ثم أخذ بأسباب التقدم فإنه يتقدم<sup>(١)</sup>.

ومن الوهم الكاذب أن يعتقد أحد أن التقدم من نصيب  
أمم بعينها مهما فعلوا، فالتقدم (قدر) والتخلف كذلك، والله  
تعالى العادل لا يحابي أحداً، وليس لديه شعب اختاره من بين  
شعوب الأرض، فكل البشر عبيده، والأفضلية عنده (للتقوى).

أما من اختاره يوماً فلصفات حازها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ  
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ  
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فهذه الصفات هي مبرر (الأفضلية)، فمتى  
فقدت وحل مكانها صفات سيئة فلا أفضلية ولا يحزنون... ا.هـ.  
لقد ضربتنا (سنة التداول) كما ضربت وتضرب غيرنا من البشر.

(١) تفسير التاريخ، نعمان السامرائي ص (١٦٥) طبعة ١٤٢٧هـ.

## سنة التغيير

من السنن الكونية الكبرى (سنة التغيير) من الأسوأ  
للأحسن، وبالعكس، ولا حصانة لأحد، ولا استثناء لأمة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا  
بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١). يبتدئ (التغيير) من الفرد لينتهي بالأمة،  
يستوي في ذلك الصعود نحو الأفضل، والهبوط نحو الأسوأ.

ويوضح الله تعالى هذه السنة، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ  
لَمَّ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمًا أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾  
(الأنفال: ٥٢).

ويؤكد هذه الحقيقة بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾  
(الصف: ٥). فالتغيير العميق يبدأ من نفس الفرد لينتهي بالأمة،  
أما (الطلاء) من الخارج وذلك بالتظاهر الكاذب، وادعاء  
الاستقامة فكل هذا ليس من التغيير؛ لكنه تظاهر وتلاعب  
لا وزن له ولا قيمة.

بعض الناس يعمد لشراء بيت أو عقار قديم، ثم يقوم  
بطلاء الجدران ودهن الأبواب والشبابيك، فيعرضه للبيع على  
أنه جديد.

بعض الحكام الفاسدين والحكومات الفاشلة تفعل ذات الشيء؛ لتوهم الناس أنها أصلحت وغيرت وبدلت.

بالمثل تتوالى الهزائم على الأمة، والحاكم الفاسد يصرخ ليل نهار (انتصرنا انتصرنا وكان سلاحنا كفاًحاً)، وكما قالت امرأة يوماً: نحن نتلاعب بالحروب ونتحارب بالملاعب.

### عندما بدأنا العد التنازلي

تقدم الأمة وتحضرها لا يتم بقرار سياسي من أعلى، كذلك التأخر والتخلف، ولا يحصل هذا ولا ذاك بيوم وليلة.

لقد تقدمنا بسرعة، ودخلنا التاريخ نحمل عقيدة سهلة واضحة، وثقافة تستند إلى آخر كتاب سماوي، وتقود الركب نبوة لها عصمة وتسديد من الخالق، ورجال تخرجوا في مدرسة النبوة، لكن أدركنا ما أدرك غيرنا من الأمم؛ لذا طرح البعض فكرة موجزة فقال: لننظر كيف كنا قبل الإسلام، وكيف صرنا عندما اعتنقنا الإسلام، وإلى ماذا صرنا عندما رحنا (نتهاون) في تطبيق الإسلام؟

د. سامي الدلال يرصد أسباب الانحسار فيعيد منها<sup>(١)</sup>:

(١) القواعد الشرعية ص (٣٤).

- ١- الحروب الصليبية الطاحنة، واجتياح الحواضر الإسلامية مثل بغداد ودمشق وحلب وجل المدن التي اجتاحتها الإعصار التتري والمغولي.
  - ٢- دخول العالم الإسلامي في حروب ومعارك طاحنة مع الغرب وأوصلها بعض الغربيين إلى (٢٧٠٠) معركة كبيرة.
  - ٣- سقوط العالم الإسلامي بأيدي المستعمرين الغربيين.
  - ٤- انتشار التصوف والحركات الباطنية.
  - ٥- ظهور تيارات حزبية تعادي الإسلام وحضارته وتاريخه.
  - ٦- انصراف وابتعاد المسلمين عن الإبداع والابتكار.
  - ٧- التخلف الفكري والثقافي والعلمي والتنموي.
  - ٨- هيمنة أنظمة غير إسلامية خصوصاً بعد سقوط الدولة العثمانية.
  - ٩- الزهد بالإسلام - خصوصاً كتشريع - والابتعاد عن الكتاب والسنة.
  - ١٠- نهب المستعمرين لخيراتنا والتحكم بأهمها كالنفط.
  - ١١- الإعجاب بالغرب فكرياً وسلوكياً وحضارةً.
- عوامل داخلية وأخرى خارجية تكاثفت لتدفع بنا نحو (ذيل القافلة).

## ما قدمه الإسلام

وجدت د. محمد شابرا يدرس قضيتين، الأولى: ما الذي قدمه الإسلام لأمته والعالم؟ والثانية: لماذا تدهور المجتمع الإسلامي بعد أن كان في المقدمة؟ والدراسات جاءت. ود. شابرا يدرس فكر (ابن خلدون) <sup>(١)</sup> ..

يقول د. شابرا - الهندي الأصل والعضو في مؤسسة النقد السعودية -: يذهب عدد من العلماء الغربيين إلى أن الإسلام لعب دوراً (إيجابياً) في تنمية المجتمعات الإسلامية في الماضي... والإسلام هو العامل الوحيد (المفسر) لمجتمع بدوي، اتسم بعداوات ضارية، مع ندرة في الموارد، مع طقس صحراوي قاس، يفترق لمتطلبات (النمو) وقد استطاع - مع كل ذلك - أن يتطور بهذه السرعة، برغم الظروف، وأن يقف بحزم ضد الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وهما الأعلى فكرياً ومادياً.

ووفقاً (لنورث وتوماس) فقد بدأ هذا المجتمع في الازدهار في القرن (السابع) حينما كانت أوروبا عبارة عن مجتمع (بربري كبير)، واستمر حتى القرن العاشر.

ويرى المؤرخ البريطاني توينبي: أنه لولا الإسلام لم يكن ليوجد (ذلك الانتشار) غير العادي للقوى الروحية (الكامنة)

(١) الأمة وأزمة الثقافة ٤٠٦/١ دار السلام عام ١٤٢٨هـ.

والتي بها حقق الإسلام نفسه، ومن ثم غير مهمته عبر ستة قرون... قام الإسلام (بتفعيل) كافة العوامل (التنموية) تفعيلاً جيداً، فساهم في ارتقاء الأفراد معنوياً وأدبياً، وهما القوة الكامنة وراء صعود أو سقوط أي مجتمع، كما غير الإسلام من نظرة أتباعه للحياة، وذلك بإعطائها (معنى وغاية)، كما وفر مؤسسات وقيماً معنوية ميسرة (للتنمية)، وصنع مناخاً ملائماً للرقابة ساعد على نمو وتغيير خصائص هذا المجتمع.

وقد أقام الإسلام نظاماً (سياسياً) ذا توجه (خلقى)، ينتخب فيه الناس (ال خليفة) الذي يحكم وفق (الشورى)، ويكون مسئولاً أمام الناس، ومن ثم قدم الإسلام إطاراً لما يسمى الآن (بالحكم الرشيد) لضمان العدالة والكرامة والمساواة واحترام النفس، فاستفاد الجميع من (التنمية) وخاصة الفقراء والمضطهدون.

لقد أقام الإسلام (حكم القانون)، وكفل حرمة الحياة والملكية وكرامة الفرد، وأعطى مكانة أعلى واحتراماً أكبر للمزارع والحريف والتاجر، مقارنة بما كان لهم في (المسيحية والمازديّة) فتراكم رأس المال والعمالة، وبمعدلات (جمركية واطية) في منطقة أفسدتها العداوات القبلية والحروب المستمرة بين الإمبراطوريات، مع قطع الطريق على القوافل، والضرائب الباهظة.

لقد كان هذا العصر (الكلاسيكي) للإسلام الذي نضجت فيه هذه (الحضارة الجديدة)، والتربة الأصلية التي ولدت من خلال احتشاد العديد من الأجناس والتقاليد فيه.

كما تم استيفاء المطالب للتنمية التي أكد عليها (نورث وتوماس)، واعترفت (شاتز ميلر) بذلك إذ تقول: جميع العوامل التي مكنت أوروبا من النجاح، كانت (متاحة للإسلام) قبل ذلك الحين بوقت بعيد.. ونتيجة لذلك حدثت دورة تنموية اقتصادية كاملة شملت الزراعة والتجارة والحرف، وأدت إلى ارتفاع جوهري في (الدخل) لكل من الأفراد والدولة معاً.

وقد حظي التعليم والبحث بدعم عام كبير، فأدى إلى التحسن في المهارات، وإلى تنمية علمية وفكرية، حتى توافر مناخ لما أطلق عليه المؤرخ (حتي): صحوة فكرية خطيرة شارك فيها العلماء في كافة المجالات، ومن كل المعتقدات ودون تمييز، وقد أمكن المحافظة على هذا (التفوق) ما يقارب من (أربعة قرون) - من منتصف القرن (٨-٥، ١٢)، وبعد ذلك حصل تراجع عن (القمة) ومع ذلك استمر الإسلام في تقديم إسهامات (جوهريّة) لما يقرب من قرنين آخرين على الأقل... اهـ.

استعراض جاد وجيد ودقيق لما قدمه الإسلام، يعلمه من يعلمه، ويجهله من أبنائنا من يجهله، ومن جهل شيئاً عاداه،

بعض أبنائنا اليوم يعيشون معنا، لكن قلوبهم تطوف حول أصنام في واشنطن ولندن وباريس وموسكو، والشكوى لله، فإذا حدثته عن الإسلام أو حضارة الإسلام أشاح بوجهه وحاول تغيير الحديث ولو حول (شرب الكولا) الذي تصنعه الهند وتبيعه، معطرًا (ببول البقر).

### أسباب تدهور المجتمع المسلم

بعد الحديث العلمي العميق لما قدمه الإسلام، يعقب د. محمد شابرا بعده على ذكر الأسباب التي أدت إلى تدهور المجتمع الإسلامي، ويذكر هنا أسماء عدد من الباحثين من مسلمين وغيرهم، يذكرون عوامل داخلية وخارجية كانت وراء هذا التدهور من بينها<sup>(١)</sup>:

١- الانحلال الأخلاقي، وقد أجاد (مالك بن نبي) طرح الفكرة إذ يقول: تبدأ الحضارة روحية، يعقبها مدة عقلية تفلسف الأولى، ثم تهيج الغرائز فتسقط الحضارة..

٢- فقدان الإسلام لديناميته، وذلك بشيوع التشدد والصرامة.

٣- تدهور النشاط الفكري والعلمي.

٤- توالي الثورات والانشقاقات الداخلية.

٥- التعرض للغزو الخارجي ووفرة الحروب.

(١) الأمة وأزمة الثقافة ١/٤١١.

- ٦- العوامل السابقة دفعت لإحداث خلل مالي وفقدان الأمن، مع تناقص معدل النمو والاستثمار.
  - ٧- حدوث تدهور في الزراعة والتجارة والحرف مع ضياع المناجم والمعادن.
  - ٨- توالي الكوارث كالمجاعة والأمراض الفتاكة كالطاعون، فتناقص عدد السكان.
- هذه العوارض لا يجادل أحد في وقوعها لكن السؤال: ألا يمكن أن تحدث ثم تعالج، خصوصاً وهذه العوامل - على قوتها لم تقع دفعة واحدة، فلماذا يعجز المجتمع عن علاجها؟

### لماذا عجز المجتمع عن العلاج؟

لو وجه السؤال للمؤرخ ابن خلدون لأجاب - كما يرى د. شابرا - : إن سبب الخراب يعود للنظام السياسي، فقد تحول من خلافة (راشدة) إلى (ملك عضوض) عندها تراجعت الكثير من (القيم) وحصل خرق للنظم، كما أسيء استخدام موارد الدولة فازدادت الضرائب، وعندها (وقعت العدالة والتنمية) ضحية لذلك، وتراجع تضامن الناس، وتأثر الحافز للعمل والإنتاج، وكثرت النزاعات وتعددت، فانقسم المجتمع إلى فئات (متناحرة)، أفضى إلى حالة من الركود، بحيث فقد الإسلام (حيويته) مدة قرون... ا.هـ.

ويمكن القول: إن التركيز هنا جرى على العاملين السياسي والاقتصادي، والارتباط بينهما لا يجادل فيه أحد.

ولابد من دراسة حياة ابن خلدون فهو المثقف الأندلسي الذي رأى كيف تنهار الحضارة وتسقط بعد قرون من العمران، ثم يغادر الأندلس إلى شمال أفريقيا ليصبح ( حاجباً ) ويغتنس في السياسة إلى الأذقان، ويدخل في مفاوضات لا نهاية لها مع ( البدو ) الذين قدموا من صعيد مصر إلى ( الجزائر وتونس حالياً ) وليسقطوا بعض الحكومات، ويوشك ابن خلدون أن يدفع حياته ثمناً لذلك، فيعتزل الحياة السياسية، ويجلس في قلعة سلامه ليكتب عن تاريخ المنطقة، جامعاً بين خبراته الثقافية وممارساته السياسية، لقد كتب تاريخاً ليس فيه جديد، لكنه كتب مقدمة جعلها في ( علم العمران ) وهنا كان إبداعه وعبقريته، لكنه جاء في زمن كانت الحضارة الإسلامية تدب نحو ( الركود ) فلم ينتفع أحد بعلمه أو يلتفت إلى ما كتب، ولأنه اصطدم أكبر اصطدام مع البدو، لذا كان موقفه حاداً جداً ضدهم، حتى اتهمه البعض بأنه ضد العرب - وهو العربي الأصيل - لكنها معاناة كبرى عاشها وكاد يقتل بسببها، فابن خلدون - المثقف الإسلامي - لن يكون ( شعوبياً ) لكنه لن يهمل تجربة عاشها، فأدمت قلبه وهو الهارب من محنة الأندلس ليقع في محنة جديدة، محنة أن تتسلط قبائل بدوية لكثرة العدد

قوية: فتهدم دولة (بجاية)، وتهدد دولاً مجاورة، من يعيش تجربة عميقة لن يستطيع أن يفلت منها أو يتجاهلها.

## ابن خلدون والقوانين الكبرى

إن مثقفاً درس في الأندلس وتعلم على عالم مثل (ابن رشد) ومارس التعليم والخطابة وتحول للشمال الأفريقي ليمارس السياسة فينجع بقدوم بدو أشداء يهددون الدول ويسقطون بعض حكوماتها، مثل هذا الحدث لن يتركه ابن خلدون يمر مروراً عابراً دون دراسة ودون أخذ العبرة.

وقد حاول د. محمد شابرا استنباط قوانين للنهوض والتقدم خلال دراسته لابن خلدون وما طرحه مما أسماه (علم العمران)، فجاءت الدراسة من عالم في الاقتصاد، وعامل في مؤسسة النقد السعودي على الوجه الآتي<sup>(١)</sup>:

- ١- قوة الملك لن تتحقق إلا بتطبيق الشريعة.
- ٢- لا يمكن تطبيق الشريعة إلا من قبل حاكم (ملك).
- ٣- الملك لن ينال القوة إلا من خلال الشعب.
- ٤- الثروة (المال) ضرورية لمساندة الشعب.
- ٥- الثروة لن تكتسب إلا من خلال التنمية (العمارة).

(١) الأمة وأزمة الثقافة ١/٣٩٥.

- ٦- لن يتحقق العمران إلا من خلال العدل.  
 ٧- العدل هو الميزان الذي يقيّم به الله عباده.  
 ٨- تقع مسئولية تحقيق العدل على عاتق الحاكم.

هذه الأفكار لابن خلدون لكن تنظيمها وحسن ترتيبها جاء من قبل د. شابرا، مع الأمانة العلمية وعدم تحميل الكلام فوق ما يريده ويعتقده ابن خلدون.

### موشح في صناعة الفشل

ما دمنا قد غطسنا في الفشل وأسبابه والتدهور وتبعاته، فقد وجدت الكاتب المصري (خليل العناني) يكتب (موشحاً) في صناعة الفشل، الذي شمل الكل وأغرق الكل لدرجة صار (الكل في الهوى سوا).

العناني يكتب حول (الإسلاميون والسلطة) ويبدو أنه سمع الكثير عن فشل الإسلاميين - دون سواهم - لذا فهو يسجل فشل الكل، فيقول<sup>(١)</sup>: لم ينجح الليبراليون - عندنا - في إنهاء الاحتلال الأجنبي، إبان النصف الأول من القرن العشرين..

ولم ينجح القوميون في الجمع بين الأيديولوجية والحكم الرشيد.

(١) صحيفة الحياة ٢٠/٧/١٤٢٨هـ.

ولم يفلح العلمانيون في إيجاد (مركب حضاري) يمزج بين  
التمدن والخصوصية الحضارية - الثقافية... ا.هـ.

إذا كان الأمر كذلك فلماذا يُلصق الفشل بالإسلاميين  
دون سواهم؟

ما هو النجاح الذي سجلته (الناصرية) بعد كل المغامرات؟  
ماذا جلب - بعث العراق - سوى استقدام (المغول الجدد)  
واحتلالهم العراق وتخريب كل شيء فيه؟

نسبنا الأحزاب التقدمية الشيوعية وعبادة ستالين وهز  
الحيال في شوارع بغداد ومحكمة المهداوي، ورفع شعار (ماكو  
مؤامرة تصير والحيال موجودة) والشعار العظيم جداً: بعد  
شهر ماكو مهر، القاضي نرمله بالنهر.. ونسيت أخيراً: تعليق  
الفتاة (قمر العمرية) على عمود الكهرباء في الموصل، عارية كما  
ولدت!

إنجازات أو إنجاسات عظيمة والخائف أعظم!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَالَّذِي حَبَّتْ لَأَيُّحُجَّ إِلَّا نَكِدًا﴾

(الأعراف: ٥٨).

## لماذا أخفق العالم الإسلامي

### في إنجاب العلم الحديث

ما دمنا نسبح في حوض الإخفاق وال فشل فقد وجدت كتاباً مترجماً  
للعربية عنوانه: (فجر العلوم الحديثة) والمؤلف (توبي أ. هاف)<sup>(١)</sup>:

والسؤال: لقد كان العرب خلال القرون (٨-١٤) للميلاد  
الأكثر تقدماً في العالم، وفي كل الميادين، لكنهم لم ينجبوا (العلم  
الحديث) فلماذا وكيف؟

مؤلف (فجر العلوم الحديثة) لديه تحليل يقول فيه:  
بعد طرح تساؤل: لماذا أخفق العالم العربي أن ينجب (العلم  
الحديث)؟ ولماذا انهيار وتراجع (الفكر العلمي والعمل في  
الحضارة العربية الإسلامية، بعد القرن ١٣)؟ مع أن (العلم  
العربي) كان منذ القرون (٨-١٤) أكثر العلوم تقدماً في العالم؟  
وقد تجاوز بكثير ما كان لدى الغرب والصين، وفي كل ميدان  
للبحث، من الفلك والكيمياء والرياضيات والطب والبصريات...  
لقد كان للعلم العربي التفوق التقني والعلمي على مدار أكثر من  
(خمسة قرون)، فلماذا لم ينجب العلم الحديث؟

إن ما يطلق عليه العرب (علم الأوائل) - علوم الطبيعة - في  
مقابل العلوم العربية والإسلامية من تفسير وحديث وفقه وعلم

(١) فجر العلوم الحديثة، ترجمة أحمد صبحي، عالم المعرفة (٢١٩) ص ١/١٧٣.

كلام وشعر ولفة، كل هذا كان (بدافع) من حب الاستطلاع، إضافة لدوافع دينية بحيث بلغ أعلى مستوى من (التقدم العلمي)، ولم يكن ذلك خدمة للعلوم الطبيعية (علم الأوائل) لذاتها بقدر ما كان عائدًا إلى الحاجة لتطوير العلوم الإسلامية نفسها، فمن أجل (قسمة المواريث) اعتبر الحساب موضوعًا مهمًا للدراسة، ومن أجل تأدية الشعائر (الصلاة) كانت الحاجة لتحديد مواقيتها، ومن ثم استخدام الهندسة ومثلها (حساب المثلثات) لغرض تحديد (القبلة).

فإذا درسنا أسباب تدهور الحضارة الإسلامية سنجد أسبابًا (عرقية) مع سيطرة (سنية أرثودوكسية) دينية مع طغيان سياسي، إضافة لوسائل متصلة بالبواعث النفسية والاقتصادية فضلًا عن إخفاق (فلاسفة الطبيعة العرب) في أن يطوروا المنهج التجريبي.

وانبثق عن هذه العوامل الأساسية أخرى (فرعية) مثل الطغيان السياسي الذي أفرز تعصبًا دينيًا تجاه علوم الطبيعة، ونشأ ما يعرف بالعلوم (السرية) فصعد التصوف والحركات السرية الباطنية خلال القرنين (١٢-١٣) للميلاد... أ.هـ.

استعراض يشارك ما ذكره د. محمد شابرا وغيره، فالأمة لا تتقدم دون أخذ جيد بأسباب التقدم، ولا تتدهور إلا إذا

أخذت بأسباب التخلف والتدهور، وهنا تتشابك عوامل داخلية وخارجية، وتتجمع أخطاء ومشكلات، فإذا أهملت وأزمنت صعب العلاج وأفرزت نتائج ومصاعب جديدة، ولعل الحروب والكوارث الطبيعية والأمراض السارية متى تجمعت وترادفت فهي كفيلة بتهديم الحضارة والدفع بها نحو الفشل.

ومن الإسهامات التي وردت في السنة:

### شيبتي هود وأخواتها

أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جيله، نظر يوماً لوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أراك شبت يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: «شيبتي هود وأخواتها».<sup>(١)</sup>

من يقرأ سورة (هود) يجدها تتحدث عن (ست) حضارات قديمة، كل حضارة ضربها مرض عضال عاجلتها عقوبة مناسبة.

واحدة أصابتها علة التلاعب بالموازين، وأخرى العبث بالأمن وقطع الطريق وإخافة الناس، وثالثة أصيبت بالشذوذ الجنسي، وهكذا.. فكل أمة عاجلتها العقوبة المناسبة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب، تحفة الأحوذى ٤/١٩٣، وأخرجه الحاكم في مستدرکه - على شرط البخاري ٢/٢٤٣. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٧٢٠).

ومعلوم أن هذه الأمم ضاربة في التاريخ، بينها وبين ظهور الإسلام ألوف السنين، لكن سنن الله لا تتغير، كما لا يمكن أحد أن يتجاوزها أو يقفز فوقها، ومن هنا جاء تخوف صاحب الرسالة، فما أصاب تلك الأمم يمكن أن يصيب أمته.

ولعل قريب من هذا ما ورد في السنة أيضاً.

### خمس خصال مهلكات

يروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فيقول <sup>(١)</sup>: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه وقال: يا معشر المهاجرين خمس خصال أعوذ بالله أن تدركون: ما ظهرت الفاحشة في قوم، حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولا منع قوم زكاة مالهم إلا منعوا القطر، ولا خفر قوم العهد، إلا سلب الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم... ١.هـ.

هذا نموذج من سنن عامة تضرب الأمم، فتزيح الأمة عن الصدارة والقيادة والريادة لتصير في ذيل القافلة، تتعثر مشيتها ويتفرق شعبها وتتشغل بعللها.

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن باب العقوبات ١٢٣/٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٧٨).

يقول تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام: ٦٥).

## دوائر الصراع ومستوياته

يحاول د. سامي الدلال تحديد (دوائر الصراع) بين العالم الإسلامي والغرب، فيسجل (١١) مستوىً أخصها فيما يلي<sup>(١)</sup>:

١- الصراع على المستوى العقدي: فالعالم الإسلامي يضم شعوباً وفتات تفرقت أزمان نشأتها، ولها أفكار بعضها لا يستقيم مع (عقيدة التنزيل)، وبعضها يعمل لاستخراج موروثه العقدي، ليجعل معه أساساً لمنطلقاته المذهبية، وهناك صراعات داخلية تستهلك الكثير من الطاقات.

أما على المستوى (الخارجي) فالصراع بين المسلمين وغيرهم يشتد، والمسلمون في موقع (الدفاع) وغيرهم في موقع (الهجوم). وهذا الصراع يظهر وكأنه صراع مصالح يرتدي (رداء العولة).

٢- المستوى الديني: يرصد الدلال المظهر الديني في العالم الإسلامي، فيذكر أن تفریطاً شديداً جارٍ في أداء الأركان العملية

(١) القواعد الشرعية لإدارة الصراع ص(٣٦) مرجع سابق.

للإسلام وخاصة (الصلاة)، وفي كثير من المرافق العامة فإنك لا تجد فرقاً بين كونك في العالم الإسلامي أو خارجه، وخاصة من جهة التبرج والسفور والملاهي الليلية، وأن الشريعة مبعدة تماماً عن الاحتكام إليها، باستثناء الأحوال الشخصية... ا.هـ.

وأحسب أن النظرة (سوداء) والمجتمعات تختلف ثقافياً وعملياً عما كان عليه الحال قبل (عقد) وأكثر، فالالتزام اليوم أفضل ومظهر شوارع العاصمة في أمثال بغداد والقاهرة، وجل العواصم، هو أفضل، وحتى أداء الشعائر أفضل بكثير، وأذكر واقعة عشتها ومازلت أذكرها جيداً، فقد وضعت جامعة بغداد (مفردة دراسية) تحت عنوان (الاقتصاد الإسلامي) فلم تجد من يدرسها، واليوم لا يخلو بلد عربي من (مصرف إسلامي) أو أكثر، والانتشار الثقافي أفضل، وأقسام الجامعات مملوءة.. لكن التوجه (الرسمي) معاد للإسلام؛ لأن الغرب غاضب على الإسلام وأهله (إذا غضبت عليك بنو تميم....).

٣- المستوى السياسي: يسجل الكاتب: إبعاد الإسلاميين عن الحكم، فلا يسمح لهم بتشكيل حزب، بل هم مضطهدون في الأعم الأغلب، والكثير منهم في السجون.

ويسجل الدلال: أن الجماعات العلمانية هي المتحكمة، ورأس مالها العمل لإبعاد الشريعة.

وهنا لا بد من كلمة واضحة صريحة، فالحكم لا يريد أن تكون إلى جانبه جماعة قوية (سوى الشرطة) ... وعندما كان الإسلاميون قلة والشارع قد أدار لهم ظهره، والغرب لا يحسب لهم حساباً، كان الحاكم العربي (يعشقهم) ويتحالف معهم، فلما صاروا (قوة ضاربة) صاروا العدو رقم واحد، وصار الحاكم يقول للغرب - ليل نهار - إما نحن في السلطة أو سيتولاها الإسلاميون، هذه قضية.

وقضية ثانية (عشتها ولمستها) حين كان الاتحاد السوفيتي يصل ويجول قبل أن يصاب بـ (السكرتة الدماغية) كان الحزب الشيوعي يساوي (الطاعون أو الإيدز)، ويكفي أن يتهم فرد بالشيوعية، حتى يضيع ويضيع مستقبله ومستقبل عائلته، مضت عقود وليس في البلاد العربية والإسلامية حزب شيوعي - باستثناء لبنان - المحكوم (بالمحاصصة الطائفية) فلما سقط الاتحاد السوفيتي، لا تمر بعاصمة إلا ترى (لافتة) كبيرة جميلة للحزب الشيوعي، ومن (تنمة ما رأيت) فقد (استنوق) جمل الشيوعية) وانتهى إعلان الحرب على (الشیطان الأكبر) فصار أعز وأحلى (أمل) أن يقف الزعيم الشيوعي وعلى وجهه ابتسامة (أعرض من وجهه)؛ لأنه يقف إلى جانب سفير أمريكي ولو قد أحيل على التقاعد.

مرة ثانية وثالثة وعاشرة الحاكم العربي والإسلامي لا يريد جيشًا قويًا؛ لأنه يغامر بانقلاب، ولا يريد حزبًا قويًا؛ لأنه يجلب (الصداع) ولا منظمة سياسية أو عمالية؛ لكونها تسبب المغص، وأحيانًا (الإسهال وسلسل البول) عافانا الله وإياكم وكافة الحكام من ذلك.

من تراثنا البعيد أذكر أن أبا جعفر المنصور -باني بغداد - يشكو هاجسًا في (مجلس خاص)، حيث يعتقد أن الجيش له حركات غير مريحة، فيتطوع أحد أعمامه قائلًا: يا أمير المؤمنين أترك ذلك لي فأنا أعالجه وقد كان، وعاد العم ليقول للمنصور: اطمئن لقد أشعلتها (قيسية يمانية) فلا تخف.

المهم الحاكم ضد كل قوي، وعاشق متيم لكل ضعيف، لا يريد لأمس، ولا يحسن قول (لا)، فمرحبًا وألف مرحب بالضعيف، واللهم أبعد عنا القوة وأهلها يا أرحم الراحمين!

مرة أخيرة (الحاكم قد لا يعادي الإسلام، ولا يريد به شرًا، ولكنه يخشى من قوة أهله ونفوذهم، فمتى استأسد العلمانيون وأحلافهم، وتوشحوا (بالحزام الأمريكي الأسود) ونادوا: هل من منازل؟ فسيبحث الحاكم عن الإسلاميين أو سواهم، (ليوازن) في القوة، وليدفع بهم القوة الجديدة.

## أخلاق عامة وخاصة (مطلقة ونسبية)

بمناسبة ما يفعله الحاكم دفاعاً عن الكرسي - الذي يهتز كأنه جان - يروي د. عبد الوهاب المسيري (مفارقة كبيرة)<sup>(١)</sup>: في المجتمع الأمريكي فيقول: قد يتبنى الأمريكي (نموذجين): واحداً (للحياة الخاصة)، أما النموذج الثاني فهو للحياة العامة، لذا قد تجد (أستاذاً للفلسفة) يدعو للإباحية في فلسفته، لكنه في حياته الخاصة يتمسك (بأهداب الفضيلة)، والتي ليس لها أي أساس في رؤيته الفلسفية، وقد كنت أحاور رجلاً من دعاة (الحرية الأخلاقية الكاملة والنسبية المعرفية) وهو إنسان فاضل حقاً، فقال: أوّمن بالنسبية (المعرفية)، ومع ذلك لا يمكن القول إنني (منحل أخلاقياً). فأجبت - من غيظي - إذن ستذهب للجنة، وتذهب أفكارك للجحيم... لقد قوضت هذه النسبية كل شيء... أهـ.

٤- المستوى الجهادي: لا يجادل مطلع أن ذروة الإسلام هو الجهاد، فالإنسان قد يضحي بماله أو جاهه، لكن المجاهد يضحي بنفسه.. وحتى الأمس القريب كان الإسلام يتهم بالسكونية والقدرية والسلبية، ومن غير مقدمات صار المسؤول عن الثورات

(١) رحلتي الفكرية، الطبعة الأولى ص (١٥٣).

والحروب وكل تفجير يقع ينسب للإسلام في الدقائق الأولى من وقوعه، وإذا قام طبيب يهودي واستعمل (سلاح الدولة) وتوجه إلى المصلين في صلاة الفجر ثم حصدهم وهم ساجدون، يقال عنه: مختل! طبيب في الجيش وهو مختل، وإن فعل ذلك مسلم مختل أسند الفعل للإسلام؛ لذا لا يوجد إرهاب يهودي ولا مسيحي ولا سواهما، بل إرهاب إسلامي وكفى.

والمطلوب اليوم - محلياً وعالمياً - التبرؤ من الجهاد بكل أصنافه ودرجاته، لكن لا أحد يتذكر الإرهاب الصهيوني والحروب المتوالية وإشعال المنطقة متى أرادت إسرائيل، أو طلب منها بعد الحرب على غزة، تجمع أكبر المنافقين في العالم - وكلهم من الغرب - وهرولوا لزيارة إسرائيل وتأييدها وبيان حقها الشرعي في الدفاع، والأبطال كلهم بين رئيس جمهورية ورئيس الوزراء، أليس هذا النوع من النفاق هو المشجع الأكبر على شن الحروب؟

ومع ذلك فالسلاح قد يقع بأيدي صبي أو مجنون أو معتوه أو متخلف، فإن كان مسلماً فالجريمة تنسب للإسلام، وقد تكون الجريمة موجهة للمسلمين وهم في انتظار للعمل أو في مطعم أو في محطة للسيارات، فالجنون فنون، ولا تخلو منه أمة اليوم.

لكنّ هناك مقاتلون مجاهدون وجدوا بلادهم تجتاح عسكرياً، فقاتلوا دون تكافؤ، وصمدوا دون مساند، ومازالوا

يسمعون قصائد هجاء على أمل أن يرضى عنهم الغرب،  
فيتعطف ويتلطف بمنحهم (وكالة) يتعيشون منها أو منصباً  
يدر مالاً، والشكوى لله أولاً وأخيراً.

٥- المستوى العسكري: يسجل الباحث أن الجيوش العربية  
أضاعت فلسطين عام ١٩٤٨م، وتوالت الهزائم وكان الأسوأ عام  
١٩٦٧م، نحارب العدو أياماً، أما الحرب بيننا فتمتد سنوات!  
لقد صارت جيوشنا حامية للنظام أو عدوة له، فتلجأ  
للانتقال، يقول اليابانيون - بحق - من يسرق مالاً: يعتقل  
ويسجن، ومن يسرق كرسيًا ينتخب (حاكمًا) مفارقة كبيرة،  
كان القدامى يقولون: سارق البيضة والدجاجة يعاقب، وسارق  
أموال الدولة يكرّم!

وألحظ - بشكل عام - قلدنا الغرب في مشاريعه التنموية  
والثقافية والسياسية والصناعية والتجارية، لكن الغريب أن  
الغرب ينجح ونحن ن فشل (فلماذا ينجحون ون فشل؟) <sup>(١)</sup>.

٦- المستوى العلمي والثقافي: الاتجاه العام في العالم  
يشير إلى تقليص الأمية إلى الحد الأدنى، لكنها في العالم  
العربي تتصاعد لتسجل إحصاءات هيئة الأمم المتحدة أنها

(١) كتبت بحثاً بالعنوان أعلاه، وكلما قدمته لجهة لنشره رفضته، ربما لأنه  
يوجع من بأيديهم اليوم (الثقافة والإعلام) وقبلتهم (مغرب الشمس)!

لامست نسبة ٦٥٪، وأن عدد المدارس والمعاهد والجامعات لم تعد تتناسب مع عدد السكان، وعدد المؤهلين للتعليم، كذلك مستويات البحث العلمي متواضعة جداً قياساً على إسرائيل..

الغريب في الأمر أننا - في العهد العباسي - أوشكنا على القضاء على الأمية وامتلات بلادنا بالكتب حتى قال (ديورنت) - صاحب كتاب قصة الحضارة -: إن مكتبة الوزير صاحب ابن عباد الشخصية، كانت تتفوق عدداً على كل ما في المكتبات العامة في أوروبا - في ذلك الوقت. وأن القاسم بن سلام كتب (غريب الحديث) فكافأه الوزير (الفتح بن خاقان) بأن رسم له راتباً شهرياً سخياً قدره عشرة آلاف درهم، وذلك مدى حياته وتصرف لذريته بعد مماته.

وحين زارنا الطاعون التتري سقطت بغداد على يد هولاءكو الأول، ورميت الكتب في دجلة حتى تغير لون مائه.

عندما استولى برابرة الأندلس عليها أحرقوا كتبنا، وأغلقوا الحمامات والمدارس، واستطاع جماعة إنقاذ (١٢) ألف مجلد من محرقة واحدة.

لقد كنا لقرون رافعي راية العلم، حين كان الإنسان في باريس ينام هو وحيواناته على القش والتبن في مكان واحد.

كنت أمزح مع طلبتي فأقول: كان أهل اليمن المواطن الأول،  
والصاحي الأول - قبل الإسلام - فلما صحا العالم كله نام أبو  
يمن، وضربته الأمية والفقر والمرض. والشكوى لله تعالى.

وأختم بما كتبه د. حسن إبراهيم حسن في كتابه الجيد  
(تاريخ العرب قبل الإسلام) فقد جاء الحديث عن مملكة  
حمير<sup>(١)</sup> (١١٥) قبل الميلاد، قد قسمت إدارياً إلى (مخاليف)،  
لكل مخالف رئيس، وقد اهتمت الدولة بالتجارة وتوسعت  
(عسكرياً)، فحاربت الفرس وأهل الحبشة، ومن ملوكهم  
الكيار (أسعد أبو كرب) حكم من (٣٨٥-٤٢١م) وكان محارباً  
جيداً، غزا بلاد فارس، ووصل إلى سمرقند، وحاصرت جيوشه  
(القسطنطينية)، حتى أخذ الجزية من أهلها، كما وصلت  
جيوشه (المدينة) شمالاً، وقد كسا (الكعبة).

فهل من يصدق هذا اليوم؟

٧- المستوى الفكري: لقد صارت بلادنا سوقاً لكل البضائع  
الفكرية الجيدة والفاصلة والمغشوشة والمتعفنة والمتفشحة، يقول  
د. الدلال: وقعت الشعوب المسلمة في خضم غيبوبة عن الإسلام،  
فصارت ضحية أفكار وافدة كالرأسمالية والشيوعية والوجودية  
والاشتراكية والديمقراطية والناصرية والعلمانية والحدثة

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ص (١٢٢).

وغيرها، وانسقت الجماهير وراء الشعارات والمبادئ الوافدة، فانضمت لمختلف الأحزاب، وأفرغت جهودها العقلية والنفسية والبدنية والمادية في دعم هذه المبادئ والذود عنها، حتى أريقت في سبيلها الدماء، وتقطعت بسببها الأرحام... ورغم أن الصحة الإسلامية قد أُلقت بظلالها على الشارع الإسلامي، لكن عمق المؤثر الوافد لا يزال كامناً في كثير من العقول والنفوس، ولقد تخرجت أجيال في مدارس (الأفكار الوافدة) واستلمت مناصب عليا ومواقع التوجيه.

وسوف يكون الصراع القادم بين أبناء البلد الواحد، وسيكون الغرب هو الرديف والمناصر والمحرك، حتى في طرح الشبهات والعمل لإبعاد الإسلام وخصوصاً في ميادين التوجه والتوجيه والفاعلية.

٨- المستوى الاقتصادي: منح الله تعالى البلاد العربية وبعض البلدان الإسلامية ثروة طبيعية جيدة، لكن أثرها (التموي) لم يكن مكافئاً لحجمها، فالفقر يهدد الكثير من المجتمعات، ويجعلها عاجزة عن التقدم والفاعلية، ومن عجب فإن شعوباً لا تملك إلا القليل ومع ذلك تسجل التقدم والنهوض، وتساهم في التحضر إلا نحن، إن الفساد الحكومي كالجراد ما أن يحط أرضاً حتى يتركها بلاقع، في بلد مثل (نيجيريا) يستطيع حكام سرقة ملايين من عائدات النفط، ثم يضعها في

بنوك الغرب، وليعود بعد سنوات ليعتلي أكبر المناصب، بلاد عربية تنتج النفط لكن لا يدخل الميزانية منه قليل ولا كثير فأين تذهب ملايين الدولارات: (نذر عيادة له ولأولاده).

إن الفساد له طبيعة جهنم، حيث يقال لها: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟

حزب عربي معروف رفع شعار: أنت تسأل والحزب يجيب، فصحح الناس الشعار فصار: (أنت تدفع والحزب يبيلع)، وظل يبيلع حتى ابتلعه أمريكا!

من المفارقات التي يصعب فهمها لأنها (نقيض المنطق) دول تنادي الأغنياء: تعالوا واستثمروا أموالكم عندنا، ثم يكتشف الناس عجباً، فهذه الدولة - وأخواتها - تستثمر أموالها في الغرب فلماذا وكيف؟

وقد تعود هذه الأموال لتستثمر في البلاد (الكحيانة) فما هذه الفلسفة كأنها المقصودة بتعريف الإنجليز للدبلوماسية بأنها: (القدرة على قول لاشيء) فهل تفهمون فلسفة (الاستثمار)؟

٩- المستوى الاجتماعي: لقد جاء الإسلام بنظام اجتماعي واضح وصريح، ونجح هذا النظام في الحفاظ على تماسك المجتمع حتى اليوم برغم أن الغرب المعجب بنفسه وحضارته

يريد تغيير النظام الاجتماعي الإسلامي، فإنه صامد برغم كل المحاولات لزعزعة الإسلام وقيمه والحلول مكانه.

الغرب بفضل (نسبيته) وتحلله الخلقي وتقلت وتفتت الأسرة وهو يريد تصدير بضاعته لنا ولغيرنا، والويل لمن يقاوم ويعارض فإنه جامد متشنج معادٍ للتحضر وللقيم الغربية.

المستشار للأمن القومي الأمريكي - سابقاً - بريجنسكي<sup>(١)</sup> يرفع عقيرته ويتحدث بكل وضوح عن تخوف العالم من (انتشار الإباحية) وتقشيتها وعلى الأخص في الدول الغنية، فهو يقول: هناك بعض الأسباب (لمخاوف جادة ومشروعة) من تزايد سيطرة (الإباحية وتقشيتها) في المجتمعات الغنية و(الديمقراطية) وتحديدتها لمحتوى وأهداف وجود الفرد نفسه، وتتضمن الفكرة مجتمعاً، تتراجع فيه وبشكل مطرد (المعايير الخلقية)، مع اهتمام زائد (بالإشباع المادي والحسي للذات) ثم يتحول الاهتمام إلى دافع رئيس للسلوك الاجتماعي، وتكون النتيجة تصاعد النسبية الأخلاقية وانهيار دور (المسؤولية المدنية) كمعيار لضبط (الحرية الفردية المنغلقة) ..

إن نمط الحياة الغربية اليوم يمثل نموذجاً للتطلعات الاجتماعية، فيما تبقى من المجتمعات الشيوعية، والجماهير

(١) هكذا يصنع المستقبل، مركز الإمارات ص (١٤٢) طبعة أولى.

المحرومة - في العالم الثالث - لكن بعض التوجهات الشعبية في الثقافة الأمريكية الراهنة تثير (مخاوف خطيرة) تتعلق بمدى قابلية التطبيق لما يسمى بـ(حضارة ما بعد العصر الصناعي) على البعيد، والقدرة على توجيه رسالة ذات معنى لعالم يتسلح (بالوعي السياسي)... هل يتوقع أن تأتي من مجتمع يركز بصورة متزايدة على (اللهو والاستهلاك) باعتبارهما جوهر النشاط الاجتماعي؟ إن اتباع هذه النزعة لا يمكن أن يستمر دون أن يقدم شكلاً للإلهام، ولا يضيء الشرعية على (إجماع دولي) حول الكيفية التي يجب أن ينظم بها العالم... أ.هـ.

### عقيدة المستشار بريجنسكي

أقرأ لما يكتبه المستشار بريجنسكي وأجمع مؤلفاته، وأعجب بأفكاره، ولعل آخر ما طرحه (عقيدة بريجنسكي)<sup>(١)</sup>: فهو يؤمن بأن المجتمع (المنغمس في الشهوات) لا يستطيع أن يسن قانوناً (أخلاقياً للعالم)، وكذلك فإن أي حضارة لا تستطيع تقديم قيادة أخلاقية فإنها سوف (تتلاشى)... أ.هـ.

باختصار شديد: فاقد الشيء لا يعطيه، وقال شاعر:  
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً  
فهل طرح هذه الأفكار يمكن أن تقنع بعض أبنائنا أم هم عاشقون، والعاشق لا يرى سوى جمال معشوقته وكفى!

(١) جنون الخطر الأخضر/ د. إبراهيم نافع ص (٢٠٨).

ذات يوم قال عاشق تركي: نريد كل ما لدى الغرب حتى  
الجراثيم التي في أمعائهم... إنه عاشق لكنه أعمى وأصم،  
نسأله تعالى العفو والعافية والبعد عن العشق (الكلبوني) ...

### موشح مطاع صفدي

للمفكر مطاع صفدي موشح - من نوع آخر من الموشحات  
الأندلسية - فهو يمكن أن يغنى وفي المقام (المدمي) إذ يقول: إن  
المتقنين العرب بأكثريتهم لا يعرفون (المشروع الثقافى الغربى)، وإن  
عرفوه فهم لا يقرؤونه، وإن قرأوا بعضه، لم يفهموا كله... هـ. (1)

مرة أخرى ما قول السادة العشاق؟

١٠- المستوى الأخلاقي: يعلن د. الدلال أسفه للانحدار  
الشديد في المستوى الأخلاقي، الذي يمر به العالم الإسلامي،  
ويعلل هذا الانحدار بسبب الاحتكاك بالغرب واقتباس العادات  
والأعراف السيئة منه، وترك ما هو خير، فقد تفتت الرشوة  
وإخلاف الوعد والتناوب بالألقاب، والتهرب من سداد الدين،  
وأمثال ذلك من الموبقات، بحيث صارت خارج نطاق (إنكار  
المنكر) وكأنها من المعروف.. إن الفساد الأخلاقي هو شر ما  
يصيب المجتمعات، لكن هناك جهود جيدة لإيقاف هذا التدهور،  
والمؤشرات تتجه للإيجاب... هـ.

(١) حصاد الأخبار العدد (١٧٤) ص (٨٢) لعام ١٩٩٩م.

هذا التصور يشترك فيه كل أصحاب الديانات وعلى الأخص السماوية، فكل دين يبشر بقيم خلقية ويحذر من قيم أخرى.. والإسلام جاء بجملة نظم منها:

(أ) العقيدة. (ب) العبادة. (ج) الأخلاق. (د) التشريع.

والاديان تشترك بالأنظمة الثلاثة الأولى، وقد تحوي تشريعات مثل اليهودية والإسلام، وقد تخلو من التشريع كالمسيحية..

وللمفكر الجزائري مالك بن نبي يرحمه الله نظرية جيدة، فكل حضارة تمر بمراحل تكون في الأولى روحية قوية، وفي الثانية عقلية تفلسف المرحلة الأولى، وفي الثالثة (تهيج الغرائز) فتتحط الثقافة وتزول... المشكل في حضارة الغرب في نسبتها وإهمالها الشديد للأخلاق - كما قال بريجنسكي - وتطلعها لنشر قيمها في العالم، والمغلوب مغرم بتقليد الغالب حتى في فساده وانحلاله، وإذا كان من علامات الساعة... أن يكون زعيم القوم أذلهم، فذلك حين يتطلع لقيادة العالم (منحل) ينظر للأخلاق كقيود مؤذية لا نفع فيها، والصراع هنا على أشده، والتدخل الخارجي كذلك (والبركة) في وسائل المواصلات والاتصالات، حتى صار العالم قرية صغيرة، وكل ما يحصل ينشر (صورة وصوت):

وإذا كان رب البيت بالدف ناقرأ فشيمة أهل البيت كلهمو الرقص

## مرجعية الأخلاق

كانت الأخلاق مرتبطة بالدين، فهو مرجعها الأساسي، فإذا فصلت عن الدين فما تكون مرجعيتها؟ هل تكون اللذة والمنفعة؟ وهل تتحول إلى نسبية فتصبح لا لون لها ولا طعم؟..

إن الأخلاق بفصلها عن الدين - خصوصاً بالنسبة للمسلمين - فتصير جاهلية بمعنى الكلمة، أو تصير مجرد مظاهر وشكل دون مضمون، أو يتقلت منها الأغنياء لتصبح من نصيب الفقراء، فينعدم الاحترام لها وتصبح كقيد يريد الكثير التخلص منه.

١١- المستوى الإنتاجي (الصناعي والزراعي): يشكو الدلال من تخلف المجتمعات المسلمة صناعياً وزراعياً، فالدول العربية تعتمد على ما تستورده من آلات وأجهزة كثيرة من الخارج، وهي تصدر الكثير من المواد الخام للغرب لتصنع هناك، وذلك بسبب انعدام الخطط التنموية، وهذا مما يساهم في انتشار البطالة وما يتبعها من انحدار في سلوك العاطلين وفاعلياتهم، وتدني مستوياتهم المعيشية والثقافية وغيرها... ا.هـ.

معلوم أن العالم عاش قرونًا يعتمد على الزراعة، حتى قامت النهضة الصناعية في الغرب، واعتمدت (الآلة) في الزراعة والصناعة فتضاعف الإنتاج، وهناك اليوم أمم ودول

تنتج بضائع لا تحتاجها ولا يمكن لمجتمعها أن يستوعبها وإذن لابد من أسواق خارجية، قد تصطدم مع منع الحكومات من دخول هذه البضائع.

وقد شهد العالم كيف هدد الغرب الصين إذا منعت استيراد الأفيون، وهددت اليابان بالاجتياح من قبل أمريكا إن لم تفتح حدودها للبضائع الأجنبية، من هنا توجه الغرب للتصدير، وهدد كل من يحول دون وصول بضائعه، وهنا برزت (ديانة جديدة) هي عبادة السوق.

### حكمة عظيمة : بالحرب يمكن صناعة كل شيء

قال تاليران لنابليون<sup>(١)</sup>: بالحرب - يعني قوة الجيش - يمكن صنع كل شيء سيدي، إلا شيئاً واحداً وهو (الجلوس على الحراب) والحكم ليس علامة على انتزاع السلطة، وإنما هو ممارسة هادئة لها... أ.هـ.

هذا التصور لقيمة القوة جعل دولة مثل الولايات المتحدة تشارك في حروب أو تساعد عليها بلغت (١٦٧)، وتنتشر جوشها في أكثر من (٥٠) دولة، كما سهل صعود أثمان البضائع الصناعية وهبوط قيمة بضائع العالم الثالث بشكل مستمر.

(١) تمرد الجماهير، خوسيه أورتيغا ص (١٤٧) طبعة ٢٠٠٧م.